بيننا طير ووردة

حسّان يوسف المحمّد

(١) فاصل صغير

دارت القهوة ما بيننا، رقص السكّر، صفّق الهال.. وأنا وأنتِ ونفرٌ من ضحكاتنا في غرفةٍ من طينٍ وخشبٍ وحياة، يلفّنا الشتاء.

برقٌ ورعد، مطرٌ وبردٌ، وفناجين قهوةٍ للتدفئة. مطرٌ، وبابنا مشروخ. مطرٌ، وشبّاكنا مكسور.. وجيران غرفتي في الدار يتلصّصون على تصرفاتنا بالحركة والكلمة. ونقترب قليلاً واحدنا من الآخر، وتقولين: «برد..» فيطير عقل الجيران، ويطيش صواب المفتي العام للبلاد.

نقترب أكثر، ننسى مطرَ الشتاء الذي يدلف فوق رأسينا من بين خصوص خشب السقف، ويفرقع الرعد، ويجنّ البرق في رؤوس الجيران.

– ميرنا، ما رأيكِ أنْ نؤجّل المشوار إلى مشروع دمّر السكني للغد، الدنيا برد.

– يجب أنْ يوافق الدكتور المشرف على مشروع التخرّج أوّلاً، لأنّه سيناقشني غداً في تفاصيل بداية العمل، وسيختار أحدَ مخطّطات الأبنية البرجية لدراسة أساساتها

– نشرب الشاي إذن..

– وننتظر توقّف المطر. ولكن أخيراً ستذهب معي، ألمْ تعدْني؟

(٢) فاصل آخر

نمشي.. ويطول المشوار. تقترب من الحائط الذي يمشي بجانبها: أنا. يستيقظ فيّ ابنُ القرية، وكلُّ عقدي التاريخية، تلك التي كانت منطوية بين جدران غرفتي الطينية في المرّة القديمة.

نحن الآن في الشارع، وها هي تقترب وها أنا أبتعد. وأسمع من بين أنفاسها المتلاحقة: تمهّلْ، أنا آسفة، لن أحتكّ بك..

***

(٣) فاصل ثالث

نصعدُ في سيّارة الأجرة، نجلس في المقعد الخلفي، وبيننا خيبتنا لأنّ رئيس قسم المخطّطات في المشروع لم يكن موجوداً..

تقترب.. وتقترب حتّى يتلامس الجسدان، أرتعشُ وأنتفضُ، وينتفضُ حاجبا السائق في المرآة فأبتعد.. وأسمع صوتها الهامس: آسفة.. آسفة.

يا إلهي كم مرة ستقول آسفة في تلك الأيّام، ولن يفهم الحائطُ فيّ، ولن يتحرّك.. وكمْ مرّةٍ ستمتدّ يدُ ها نحوه، فلا يحسّ!. وحتى في السينما ستهمس له بكلمة حب ولن يفهم.. وستقطع العرضَ بابتسامة، وتهمس له في أذنه:

«كان في بلدتنا رجل، هاجر إلى أمريكا اللاتينية، غاب سبعة عشر عاماً في الأرجنتين، ثم عاد. عادَ وكلّ ما يعرفه كلمة واحدة يكرّرها دائماً: سالوت..».

وتضحك.. تضحك، وأنا لا أفهم ما يضحكها، ويأتي أحدُ الحرّاس فيطردنا خارج قاعة سينما الشام، لأنّ صوت ضحكتها الرنّان غلبَ صوت الرقصة المنبعثة عن كارمن. ولم نندم على الطرد، كنّا أنذاك نحضر فيلم «كارمن» للمرّة السابعة... لكنني حتى الآن لم أفهم ما الذي كان يضحكها في قصّة سالوت؟!

***

(٤) القصّة

كنّا نمشي في سوق الصالحية، فعرّفتني عن بعد على حبيبها الذي تركها لأسبابٍ طائفية. ووقتها كادتْ أنْ تشهقَ بالبكاء وهي تراقبه يبتعد ويضيع في زحام الرصيف الآخر. وكنت أريد أنْ أذهب إليه فأعاركه لهذا السبب فقط: لأنّها كادت أنْ تشهقَ بالبكاء.. فيما بعد ستُعرّفني على حبيبها الثاني ذي الأصول البدوية، ستأخذني في زيارةٍ إلى شقّته الفخمة وتعرّفني عليه، فيبدو لي ظريفاً وشهماً كما حدّثتني عنه. وبعد عامين كان يغيب فيهما كثيراً ويسافر خارج البلاد، لكونه فُصِلَ من الجامعة بسبب الغشّ الامتحاني، جاءَ مرّة واحدة وقال لها: وداعاً ميرنا..

وعندما بكت على كتفي طويلاً، ترثي انخداعَها للمرّة الثانية، لم أعرفْ كيف أواسي خيبتها، فدفعتُ إليها صحيفةً يوميةً لتقرأ قصيدةَ شعرٍ فيها، فضربتني بالصحيفة، وكفكفتْ دمعها وأدارت ظهرها لي، ومضتْ..

***

(٥) تتمّة القصّة

ذات ليل طويل . يزيّنه قمرٌ كئيب، يغيب ويظهر خلف الغيوم، سيستمع إلى مارسيل خليفة يغنّي لريتا: «بيننا مليونُ عصفورٍ وصورةْ..

ومواعيدُ كثيرة أطلقت ناراً عليها بندقيةْ..».

سيتذكّرها وهو على شرفة منزله في مدينة نائية بعيْد منتصف الليل، بينما يراقب قمراً خجول الظهور.. سيتذكّرها ويُدرك أنّه لم يحبّ غيرها، هي تلك التي مرّةً واحدة، وضعتْ يدها حول خاصرته وضمّته في سوقٍ مزدحم بعيْد غروب، فأحرقتْ بجمرتها قلبه، وأحرقتْ بضمّها أصابعَه.. سيتذكّر أنّ المغنّي كان آنذاك يغنّي لريتا: «أيّ شيءٍ ردٌ عن عينيك عينيّ؟».

وسيحاول أنْ يتذكّر بعد تلك السنوات أين كانا؟ في الصالحية أمْ سوق الحميدية؟ هل تناولا البوظة يومها من محلّ دامر أم من عند بكداش في الطابق الثاني المخصّص للعائلات، حيث ستقول له: «ها أصبحنا عائلة»، وستضحك ضحكتها العالية، فيطردهما النادل..

ها هو يتذكّر أنّه لم يحبّ غيرها، وأنّ كل قصص الحبّ التي مرّ بها فيما بعد، لم تكن حبّاً، لم تكن سوى شطحات خيال..

سبعة أعوام مرّتْ، خطرتْ له خلالها مئات المرّات، لكنّها لم تخطر له برفقة الأغنيّة سوى هذه المرّة التي ستقلقه، وتجعله يهبط عن الشرفة، ويتوجّه إلى المحطّة ويستقلّ قطار الساعة الثالثة والربع صباحاً ليتوجّه نحو العاصمة، كي يراها، كي يهمس في أذنها، أنّه يُحبّها، وأنْ يقول لها: «أي شيءٍ ردٌ عن عينيك عينيّ؟»..وليقول لها إنّها إذا كانت لا تحبّه فهو لا يطلب منها سوى أنْ ترافقه إلى محلّ المرطّبات ليطلبا نصفَ كيلو بوظة بالحليب والفواكه، ويجلسا في قسم العائلات وتقول له فقط تلك الجملة: «ها أصبحنا عائلة..».

وها هو ينتظرها أمام باب المشفى الجامعي، حيث عُيِّنَتْ بعد التخرّج في قسم الصيانة والترميم الهندسي في المشفى. ينتظر دخول الموظفين منذ الصباح، مثل مراقب الدوام، وتصبح الساعة التاسعة ولم تدخل! فيدخل هو..

ويفاجأ عندما سيدلّونه على مكتبها أنها في الداخل، وقد دخلتْ بواسطة ميكروباص للموظفين.. وعندما سيفتح بابَ مكتبها، سيُفاجأ أنّ ذلك الطائر الجميل، عصفورةَ البراري المخدوعة بحبيبين وجدار كان يدقّ باب مكتبها آنذاك، سيفاجأ أنها مختبئة في قفصٍ من أقمشةٍ بيضاء وسوداء، لا يُرى من كلّ جسدها سوى وجه به تلك العينان اللتان برقتا بالضحكات مراتٍ كثيرة.

ها هو يشهق.. وها هي تضحك ولكن بصوتٍ منخفض، وابتسامٍ رزين:

– أهلاً جهاد.. واللّه زمان.. ما تندهش..

لقد غابَ عنها طويلاً، فها هو يراها قد شاخت داخل الحجاب، ويرى إصبَعَها في خاتم الزواج غيرَ جميلةٍ، ولم تقنعه بهيئتها الجديدة، ولا بسعادتها المزعومة، ولا بتكفيرها عمّا أسمته «خطايا قبل الزواج».. استمع إليها طويلاً، وما قال شيئاً، ولا نطق كلمة..

وها هو يتشردق بفنجان القهوة، وقلبه يكاد ينشطر على حبّه الوحيد. وعندما التقط كفّها للوداع، وكانت كعصفورةٍ ميّتة وباردة، قال يخاطبها وهو يرتجف كمداً وحزناً:

– يا إلهي لقد قتلوا الطيرَ فيك، وقطفوا الوردةَ الجميلة. لقد أعدموكِ حيّةً.

ولم ينتظر كي يستمع إلى نحيبها، أو يرى دمع عينيها، بَلْ أرخى يدها الميتة، ومضى، دون أن يقطفَ منها نظرة الوداع الأخيرة..

***

(٦) خاتمة أولى

مَرَّ زمنٌ طويل، وهو لا يتذكّر شيئاً غيرها.. ميرنا طالبة كلية الهندسة، أجمل طالبة في الجامعة آنذاك، أو كما كان يراها: أجمل امرأة مخدوعة في التاريخ.

كان ذاهباً الآن للنوم. قبل النوم قرأ رسائل حبيبته التي جافاها منذ زمنٍ بعيدٍ، بعيد.. قرأها واحدةً واحدة، كلمةً كلمة. وبعد قراءة السطر الأخير، فرشَ غلافاتها المهورة الطوابع بخاتم البريد، على أرض الغرفة، فاتّسعتْ لها على عشرةِ طوابق.. ثمّ جمعها في الركن، وبعد أنْ أحرقها، أمسك مسدّساً وانتحر.. ثمّ ذهب إلى النوم..

***

(٧) خاتمة أخيرة

في النوم رأى حلماً، في الحلم كان يركب في حافلةِ نقلٍ عامّة، كان يهدهد طفلةً معلّقةً بطرفِ قماطها إلى سقف الحافلة، كان يؤرجحها وهي ملفوفةٌ بحرامٍ من حرير. وكلّما عبرَ موقفاً للركوب، كَبُرت..

كان لايزال يؤرجحها ويغنّي لها بصوتٍ خافت: «يا اللّه تنام.. يا اللّه تنام.. لَذْبَحْلَكْ طير الحمام...» وفي الموقفِ الأخير، سيجد أنّها كبرت أكثر ممّا يمكنه أنْ يتخيّل..

فتخيّلَ كيف كان لجسدها طغيانٌ مفاجئ، يشفّ في لحظةٍ كطيف، ويتقطع بعذوبةٍ كحبلٍ من مطر، فتضطرم النارُ فيه.. ويمّحي في حضرة هذا التضاد.. فيأخذه آنذاك إليها، هذا الرهيف، الشفّاف كضوء.. فيشفّ بدوره ويتقطّع كنغمٍ في آلة، فيتمرّغ في ضوئها، ويشمّ رائحتها الفائقة، فتعيده الرائحة / الذاكرة إلى حالته الفاجعة كوصلةٍ من نايٍ حزين.. فيصدمه غيابها المتناثر كقطع من زجاج تهشّم..

يلتقّط الصوت / الارتطام ويتعقّب الخطُوات فلا يجد أثراً لها، صراخها في أذنيه ولا أثر.. وتبعَ انخداعه، مثل قرص عبّاد الشمس، دار مع دورتها، فانسكب عليه الضوء / الرائحة الحضور / الغياب.. الحالة اللامجدية لحبٍّ مات ولم يولد.. احتضر في أوجِ تألّقه، نزفَ، وسالَ كفراشةٍ مقتولة في نبعِ ماء.. ولو أنّ فراشة أيّامه طارت نحوها آنذاك، لكان تشكّل في حركاته: رقصات / موسيقى / شعر..

وها هو يستعيد صحوه، فلا يرى سوى عتمةِ الغرفة، وبرودةِ الفراش، وصوتُها صدىً يتردّد مفجعاً: أنا زبدٌ البحر.. زبد البحر.. البحر.

***

(٨) الخاتمة بعد الأخيرة

استفاق من نومه في الصباح، تناول فنجانَ قهوته ثم ذهب إلى عمله كالعادة، وعادَ كالعادة أيضاً.. تناول طعامَه وزار أصدقاءه وقرأ الصحف وشاهد برامج التلفزيون، واستمع للموسيقى، ونام، واستفاق، وذهب للعمل وعاد كالعادة.. وبقيت حياته على رتابتها..

لكنّه ذات يوم، ولم يدر كيف حدث ذلك، وجدَ نفسه وسط زحام الناس، يشقّ طريقه على درَجات سلّم المشفى الجامعي، باتجاه عتبة غرفتها..

حمص